

تأليف: عثمان الكعاك

أعده للنشر: تامغناست





تأليف: عثمان الكعاك
أعده للنشر: تامغناست



مستهل

هذا كتاب صغير في موضوع كبير، وبحث قصير في مبحث طويل، ونظرة جديدة في قضية قديمة. وبعد فهذا تجانس على هيامبسال ملك البربر وشيخ مؤرخي الأقدمين، وعلى المطماطي كبير نسابيهم، وعلى ابن خلدون فيلسوف المؤرخين: وهذه الخطوة الجسورة، قد خطوناها على حال في تواضع وبدون كبير ادعاء، لأننا لابد أن نخطوها لتحرير الموضوع، ووضع القضية في إطارها وبيان عناصرها وتلخيص فصولها واستعراض مراحلها في الزمان والمكان وتبسيط المعرفة عنها في ذهن الجمهور النير، وعلى الخصوص لرفع اللبس المتراكم عليها من صنيع مدرسة الجزائر التاريخية التي تلبس الحق بالباطل والباطل بالحق، والواقع إننا نلاقي البربر في كل عصر من اعصار المغرب، وفي كل مصر من أمصاره، فكيف لانؤرخهم؟ ونلاقي البربر في كل حقبة من تاريخ الإسلام، وفي كل حادث إسلامي ذي اثر، فكيف لانؤرخهم ؟ ولعلهم اكبر الشعوب الإسلامية، - أو على الأقل - من اكبر الشعوب الإسلامية التي لعبت دورا أساسيا في تاريخ الإسلام، لاسيما في الأندلس وصقلية والمغرب وإفريقيا السوداء، وكيف

ننسى أن قبيلة كتامة البربرية قد نقلت على كاهلها الخلافة الفاطمية إلى مصر والشام، ونشرت المذهب الشيعي في جزيرة العرب شمالا وجنوبا وجعلت الخلافة العباسية قاب قوسين أو أدنى من هلاكها؟ ولا ينبغي أن ننسى أن الجيش اللوبي هو الذي اعتمدته قرطاجنة في حروبها وأن انتصارات حنبل قد قامت على كاهل الفرسان الليبين والفيالين ففتح بهم اسبانيا وغاليا وايطاليا: وأن الجيش النوميدي البربري والجنتوك البربري هما اللذان سمحا إلى جانب عظيم بإنشاء الإمبراطورية الرومانية: وأن جيوش طارق البربرية هي التي فتحت الأندلس مع جيوش العرب وأن جنود عبد الرحمن الغافقي التي فتحت فرنسا كان معظمها من البربر، وأن دولا كثيرة قامت على كاهل البربر كالأمويين في الأندلس، والأدارسة بالمغرب والرستميين بالجزائر والأغالبة بتونس والفاطميين بالمغرب والمشرق: وأن دولا كثيرة قامت من البربر كملوك الطوائف بالأندلس والمرابطين والموحدين بالمغرب، والحماديين والزنانيين بالجزائر، والصنهاجيين والحفصيين بتونس، والخزرونيين بطرابلس، ولم تقم على البربر وللبربر دولة سياسية فقط بل قامت بهم ولهم دولة اقتصادية ودولة علوم ودولة فنون، ولم تقم لهم هذه الدول في عصر من العصور فقط بل في كل عصر من العصور، ولم تقم لهم هذه الدول في مصر من الأمصار فقط، بل في كثير من الأمصار الإسلامية من الأندلس إلى مصر إلى قلب إفريقيا السوداء، فنحن إذ نؤرخهم نؤرخ الجناح السيار من البحر المتوسط في حوضه الغربي، ونؤرخ شعبا حيا متوثبا ماجدا جليلا. إلا أننا لا نريد أن

نطمع القارئ الكريم في إطناب مسهب وإحاطة شاملة، وإنما هي نظرة خاطفة واستعراض سينمائي بهما المهم مما يجب معرفته ولا يحسن الجهل به وذلك وفاقا لبرنامج هذه السلسلة الكريمة ووقوفا عند حدود الكتابة المعينة ولم نشأ أن نجعل هذا الاستعراض جافا كالجذع المجرد من العصارة والأغصان والأوراق والأزهار، ولا بحثا مدرسيا تنزله من علو منصتنا الدراسية على قراء مستضعفين، ولا صورا تاريخية متحركة مجردة من الروح، بل حاولنا قصارى الجهد أن نجعله بحثا حيا جداليا أحيانا واستصحبنا مؤرخي العصور يصفون لنا في إيجاز أخبار هؤلاء البربر، ولا نقول إننا نجحنا في ذلك كثيرا أو قليلا أو لاشيء فالحكم في ذلك لحضرات القراء وبالله التوفيق.

عثمان الكعاك

جبل ا لمنار

جمادى الأولى 1375

الفصل الأول

مؤرخو البربر في العصور القديمة

الشعب البربري، أو شعب أمازيغ - أي الأشراف الأحرار- نزح إلى شمال إفريقيا بعضه من أوروبا وبعضه من اليمن على طريق الحبشة ومصر وليبيا، وانتشر في ربوع المغرب وجهات من الصحراء وأطراف من مصر، واستقر بكثير من الجزائر، مثل جزائر الكناري في المحيط الأطلسي وجزر سردينيا وصقلية وقوصرة ومالطة في البحر المتوسط وكان ذلك في عصور متقادمة لا تقل عن ثلاثين قرنا قبل ميلاد المسيح.

ولهذا الشعب خصائصه الجنسية في الطول وصبغة الشعر ولون العين وشكل الجمجمة: كما له عادات خاصة به عائلية وقروية وموسمية ودينية، وله لغته البربرية المتميزة بذاتها المعروفة من قديم والمتسلسلة إلى الآن التي لها آدابها الشعبية والعلمية شفاهية وكتابية؛ وله عقائده القديمة الوثنية، وقد تتبع أديان الشعوب التي غزت بلاده لكنه استبقى في العقائد الجديدة كثيرا من عقائده أو أوهامه الوطنية القديمة؛ ولم يقنع بذلك حتى ميز نفسه بمذهب جديد في كل دين جديد اعتنقه

ليكون متميزا عن الشعب الفاتح المكتسح ومحافظا على خصائص قومية بأي شكل من الأشكال. فاعتنق اليهودية في عصر ما. ولكنها يهودية خاصة به. فما أبعد ما بين موسوية يهود جربة أو يهود صفرو بالمغرب وغيرهم من اليهود. وكان من أسرع الشعوب لاعتناق النصرانية يوم ظهرت، وابتدع لها أحد أبنائه البرابرة القديس اوغوستيوس مذهب الكثلكة ليتميز عن النصرانية السلفية. فلما عمت الكثلكه الرومانيين الفاتحين ابتدع الدوناتوسية وهلم جرا. وكان البربر من اسبق الشعوب إلى اعتناق الإسلام، ثم كون في الإسلام مذاهب خارجية امتازت بها قبائله وصارعت من أجلها الحكم القائم. هذا الشعب الذي هو متدفق الحيوية مفرط النشاط المتميز بحب أرضه والمتفاني في خدمة تربتها. وهذا الشعب المتمسك بمؤسساته القومية قد أثار إعجاب الباحثين منذ قديم وأدهش الناظرين من شعوب العالم بما له من تاريخ ماجد حافل بالأعمال الجليلة. لذلك أقبل المؤرخون والجغرافيون منذ العصور القديمة على البحث عن مخصصاته ومميزاته.

ولعله من الخير أن نستعرض أخبار من درس هذا الشعب لنعلم منها كيف كانت احوال البربر في العصور وكيف تصور الباحثون أحوال البربر من طور إلى طور فنبحث في الفصل الأول عن قدماء المؤرخين والبربر.

وفي الفصل الثاني عن ابن خلدون والبربر. وفي الفصل الثالث عن الأوروبيين والبربر.

القدماء الذين بحثوا عن البربر: مصريون وبونيقيون ويونان وروما ن وبربر.

المصريون:

لعل المصريين أقدم من روى لنا أخبار البربر، والأمر مفهوم فإن من النظريات الرائجة توجد النظرية الحامية التي تقول إن البربر من الحاميين وهؤلاء الحاميون هم المصريون الفرعونيون والحبشة والصومال والسودانيون. فالبربر والمصريون أبناء أعمام، فلا غرابة أن يكون المصريون قد اعتنوا بدرس أحوال البربر، ولو بمنتهى الإيجاز.

ونحن نجد في النقائش المرسومة على معالم المصريين من مصاطب وأهرام ومسلات، وفي الوثائق المصرية المكتوبة على البردي، نجد فيها جميعا معلومات عن القبائل البربرية المعاصرة للفراعنة ولاسيما من كانت منها متاخمة لمصر وببلاد برقة على الخصوص، وهذه الوثائق المنقوشة أو المكتوبة تسمى " تاحومو " أو " ربو " ومنها " لوبو " الذي هو الاسم القديم المطلق على البربر، ومن كلمة لوبو جاءت لوبيا التي حرفت إلى ليبيا، تسميهم أيضا " لشبط " ومنها جاء اسم القبيلة البربرية اشبوستاي عند اليونانيين، وسمتهم أيضا " بقن " و " مشوش " إلى غير ذلك، ولم تقف هذه الوثائق عند حد ذكر اسماء القبائل بل تعدت ذلك إلى دراسة الخصائص البشرية والعادات والأخلاق وما يتعلق بحضارة البربر بوجه عام، وكان هؤلاء البربر طالما حاربوا المصريين فغزوا بلاد مصر وقتلوا من قتلوا واسروا وسبوا وغنموا، وفي عهد

فرعون عصر منو فتاح تألب البربر ومن انضم إليهم من سكان الأقطار الواقعة على سواحل البحر المتوسط وأرادوا القضاء على سلطان مصر وهيمنة المصريين وانتهت هذه المشادة المسلحة بانتصار المصريين، وتظهر لنا العلاقات التي كانت قائمة في تلك العصور بين البربر والمصريين كعلاقات بين قبائل مترحلة شبيهة بالمتحضرة وأمة قد بلغت درجة راقية من الحضارة. ويفسر هذا بأن العلماء قد بحثوا حضارة المصريين ولم يبحثوا حضارة البربر. فالأمر يحتاج إلى زيادة تنقيب لنعلم بالضبط ماذا كانت حضارة البربر في تلك العصور، إذ أن نظرة عميقة في أحوال الشعبين تدلنا على مشابهة بين الحضارتين وألفة بين خصائص الأمتين، على أن الحفريات الأولى التي اجريت على حدود برقة في التخوم الليبية المصرية تدل على أن الحضارة الأولى مصدرها البربر وانتشرت منهم إلى من داناهم من المصريين. وكون البربر وقفوا في حين ما، عند مستوى معين من الحضارة بينما المصريون الذين أخذوا عنهم سبقوهم في هذا الميدان بمراحل فتفسيره أن موطن البربر ضعيف اقتصاديا وموطن المصريين قد أخصبه النيل فانبرى المصريون إلى الأمام بفضل هذا اللون من الحضارة النهرية وبقى البربر مكانهم في رمال الصحراء.

البونيقيون:

البونيقيون هم الفينيقيون الذين " تونسوا " واختلطوا بالبربر فتميزت خصائصهم الحضرية عن خصائص أجدادهم أهل صور وصيدا من مدن فينيقيا الذين أسسوا مراكز تجارية على طول السواحل الغربية في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. ولما كانوا

عربا من بني كنعان فقد اختلطوا بالبربر الذين هم عرب من العاربة القحطانية، وانتشرت الحضارة البونيقية وعمت الثقافة البونيقية البربر حتى أنهم لما أسسوا ممالك مستقلة كانت إحدى اللغتين الرسميتين هي اللغة البونيقية وبها ألف البربر تصانيفهم ولم يكن بربري مثقف لا يعرف اللغة البونيقية حتى أن الرومان لما انتصروا على البونيقيين وأخذوا قرطاجنة انتزعوا ما يوجد في المكتبات من الكتب البونيقية ووزعوها على البربر.

وأدب كل أمة هو مرآة تنعكس عليها أخلاقها ومنازعها ومطالبها. والبونيقيون أمة بحارة وتجارة وفلاحة. فمعظم تصانيفهم فلاحية ورحلات بحرية أشهرها الموسوعة الفلاحية التي ألها ماغون القرطاجني وهر أقدم موسوعة فلاحية في الدنيا ثم رحلة حنون القارة الإفريقية ورحلة عملقوا إلى سواحل أوروبا الغربية وجزائرها وخصوصها جزائر بريطانيا العظمى التي كان يذهب إليها البونيقيون لجلب معدن التصدير. وما وصلنا من الأدب البونيقي إلا هذه التصانيف وما وصلتنا من هذه التصانيف إلا نتف مبعثرة في كتب اليونان والرومان. ونعرف من هذه النتف على قلتها بعض أحوال البربر العائشين بالمغرب الأقصى على سواحل المحيط الأطلسي وضفاف نهر النيجر ولاشك أن البونيقيين ألفوا أكثر من ذلك بكثير. ولاشك أيضا أنهم اعتنوا بتاريخ البربر ووصف أحوالهم لأنهم كانوا يعرفون عن كثب. وشيء آخر هو أن البونيقيين قد استهلنوا في آخر مدتهم إذ تأثروا بالحضارة الهلنية اليونانية وصارت قرطاجنة مثل أثينا والإسكندرية وقريني وشرشار مركزا للحضارة اليونانية وبها

في الأن الواحد جالية يونانية منتجة كما بها ارسطوقراطية بونيقية نيرة متأثرة إلى أبعد حد بالثقافة اليونانية. فكان مؤرخا حنبل يونانيين وكانت النساء البونيقيات أنفسهن متضلعات في الأدب والفنون الإغريقية، وسنتحدث عن مؤرخي اليونان بقرطاجنة في مبحث بعد هذا. وقلنا من جهة أخرى إن البربر المثقفين الذين ظهروا في القرن الثاني قبل الميلاد والذين سعوا إلى استقلال بلادهم وبناء إمبراطوريتهم كانوا يحررون تصانيفهم التاريخية وغيرها باللغة البونيقية في الغالب. وسنولي الحديث عنهم في مبحث يأتي إن شاء الله تعالى.

وبالجملة فما كتبه البونيقيون عن البربر لابد أن يكون كثيرا وعميقا ومستوعبا إلا أن ما وصلنا منه هو النزر القليل لضياع المكتبات البونيقية وإحراق الرومان لتلك التصانيف العلمية وذلك أحد آثار الرومانيين التاريخية التي لا تماثلها وحشية وجناية على العلم البشرى.

المؤرخون اليونانيون:

ابتدأ المصريون البحث عن تاريخ البربر منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وابتدأ البونيقيون البحث عنهم ابتداء من القرن السابع. وابتدأ ذلك اليونان ابتداء من القرن السادس.

واليونان الذين درسوا البربر إما الأصليون من بلاد اليونان أصالة، أو من الجالية اليونانية بمدينة قرطاجنة أو من الجالية اليونانية بمدينة قريني في ليبيا. أو من البربر المستهلين الذين كتبوا باليونانية وهذا الصنف سندرسه في مبحث آخر، وبالجملة

فمؤرخو اليونان وعلماء الجغرافية منهم هم أدق القدماء وأوسعهم دراسة لأحوال البربر كما سنرى.

هيقاطوس:

يظهر أن أول من كتب عن البربر من مؤرخي اليونان وجغرافييهم هو هيقاطوس الذي ألف في آخر القرن السادس أو أوائل الخامس مصنفا جغرافيا يتألف من قسمين: قسم يتعلق بأوروبا، وقسم يتعلق بآسيا، وقد أردف القسم الأسيوي بفذلكه عن جغرافية لوبيا أو بلاد البربر، وقد سافر هيقاطوس كثيرا وزار مصر وأقام بها واستفاد من أهلها كثيرا عن أحوال البربر، وقد ضاع كتابه ولم يبق منه فيما يخص البربر إلا نحو 30 نبذة تتعلق في الغالب بأسماء مدن أو جزائر لم يقع على الأكثر تعيينها وتحقيق هويتها. وما وصلنا من تصنيف هيقاطوس لا يفيدنا عن أصل البربر أو عاداتهم أو أسماء

قبائلهم أو أنسابهم. ومع ذلك فكتابه هو الذي عول عليه هيرودوتس أو -على الأقل- عول على الكثير منه في تصنيف ما كتبه " أبو التاريخ " عن البربر، وأثبت الباحثون أن ما اقتبسه هيرودوتس عن هيقاطوس هو من الأهمية بمكان.

هيرودوتس:

شيخ المؤرخين اليونانيين، أو شيخ التاريخ على الإطلاق كما ينعت عادة _هو هيرودوتس الذي ولد ببلاد الإغريق سنة 484قبل الميلاد أي في عصر ازدهار الحضارة البونيقية بتونس _ وقد زار هيرودوتس مدينة قيرني -الشحات بولاية برقة في

ليبيا- سنة 455ق م. وأخذ من أهل قريني الذي هم أكثرية بربرية وأقلية يونانية وبونيقية وثائق دقيقة ومعلومات صحيحة جدا عن سكان الشمال الشرقي من أهل المغرب. فقسم السكان الأصليين إلى اتوبيين ولوبيين. وبين لنا منازل هؤلاء اللوبيين (البربر القدماء) ودرس بعض عاداتهم. إلا أنه من الصعوبة بمكان إيجاد أوجه الشبه في أسماء القبائل التي أوردها هيرودوتس والتي أوردها ابن خلدون.

يقول هيرودوتس إن القبائل اللوبية التي تسكن بلاد مرمر يقايني مصر وبرقة جنوب مدينة قريني تسمى "اسبوط" وتتاخمها في الغرب منها نحو الصحراء قبائل أوسخير وقابالة وتوجد بجهة فزان قبائل الغرامانت. وأنت على طول ساحل السرت فقبيلة ناسامون الكبرى. وبين خليج السرت الكبير وخليج السرت الصغير (خليج قابس) ضربت قبائل ماغ أومالك ثم قبائل غندانة ولعلها جدالة التي ذكرها ابن خلدون وأما جربة السواحل المقابلة لها فقد استوطنتها قبائل اللة النبق " لوطوفاج " الشاعر اليوناني الكبير هوميروس في ملحمته الأوديسة. (التي ترجمها البستاني إلى العربية أبدع ترجمة).

ويسكن الساحل الشرقي التونسي بين جربة ونهر مجردة قبائل " ما خلوه " ويسميهم الجغرافي اليوناني بطليموس " ماخونه " ونرى في هذه التسمية مشابهة بمازيغ فلفظة ماخ أوماغ أو مالك أو ماق أو ماس بالبربرية القديمة معناها الكبير أو الشريف. ويصح أن تكون لفظة ماخونة هي مازونة البربرية وهي اسم قبيلة مشهورة ما تزال بعض أفخاذها ضاربة بالوسط

الجنوبي التونسي.

وأما في شمال مجردة فالناحية الشرقية بين ماطر وخليج تونس يسكنها الأوسة وهي الإقليم الذي يسميه ابن خلدون سطفورة فإذا اعتبرنا " أو " بمعنى " أولاد " فيمكن تفسير أوسية باولادسية أو أولادسوة على اختلاف النطق مع زيادة فوره التي لا ندري معناها بالبربرية فتكون سطفورة أو " سوه " أو " سوط " مع حذف " فورة " ضاربة بهذه الجهة من عهد هيرودوتس أي من القرن الخامس قبل الميلاد.

أما في الشمال الغربي من نهر مجردة في بلاد خمير ونفرة ومقعد الأن فتوجد قبائل ماكوة. ولعلها هي غير مقعد.

وتوجد بعد ماكوة قبائل زواقة أو زواغة أر زوارة وهي زوارة من ناحية وزاواوة من ناحية أخرى. فيظهر من هذا أن مقعد وزوارة وزواوة مازالت بعين مواطنها من عهد هيرودوتس إلى الأن.

ويبين لنا المؤرخ اليوناني هيرودوتس أن البربر ينقسمون إلى فريقين. فمن كان منهم بتونس أي بالمغرب الأدنى فهو مترحل. ومن كان منهم بالغرب الأوسط فهو يسكن السهول يحرث فيها ويفلح ويسكن الجبال التي تعمر الغابات. وقد بين لنا هيرودوتس أن سكان الجزائر من البربر هم الجيتوليون أي الذين سماهم العرب فيما بعد جدالة وغزولة وجزولة وفزولة. واما سكان الغرب الأقصى فهم الفاروزيون.

ودرس هيرودوتس عادات البربر في الأكل والشرب واللباس والمواسم فأعلمنا أن النسوة البربريات يزغردن ويولولن وتعجب

من هذه العادة التي لم يكن يعرفها وأنهن يوشمن ويتخضبن وبين لنا حتى عادات البربر في المدافن.

ونحن سنقتبس في عين هذا الموضوع من هيرودوتس مقتبسات تبين لنا أن هذا المؤرخ عرف البربر عن كثب.

سيلاكس ورحلته:

ألف البحار اليوناني سيلاكس رحلته في القرن الرابع قبل الميلاد. فوصف لنا سواحل افريقية والغرب وسواحل مراكش على المحيط الأطلسي ويعتمد سيلاكس في رحلته التي دونها على مشاهداته الخاصة ولكنه يعول أيضا على رحالين يونانيين قد سبقوا عهد هيرودوتس.

ديودورس الصقلي:

ومن المؤرخين اليونانيين الذين اعتنوا بالتحدث عن البربر ديودورس الصقلي المؤرخ اليوناني الشهير الذي عاش في القرن الأول قبل المسيح في عهد الإمبراطور الروماني أوغسطس وألف مكتبة تاريخية ثمينة جدا هي عبارة عن تاريخ العالم من الأول إلى سنة 60 ق. م. وفيما يخص موضوعنا تحدث ديودورس خاصة عن زحفة اغاثوفليس الصقلي الذي هاجم الوطن القبلي (جزيرة أبي شريك) في القرن الرابع قبل الميلاد وحاول افتكاك البلاد من القرطاجيين وهو الذي بني مدينة قليبية. نقل لنا ديودروس أخبار هذه الزحفة اعتمادا على المؤرخ اليوناني دوريس الذي كان معاصرا لها غير أن حديثه قليل العناية بالبربر مباشرة لانصراف السياق إلى ذكر أطوار الحرب وإفاضة الحديث عن اليونانيين والقرطاجيين.

ومع ذلك فالمدقق يستطيع أن يجتني منه بعض الثمار.

ايراتوشينس الجغرافي:

رياضي وفلكي وفيلسوف وجغرافي كبير منسوب إلى مدرسة الإسكندرية اليونانية المشهورة في العصور القديمة بمكتبتها ومذاهبها التعليمية إلا انه في الحقيقة ابن مدينة قريني (الشحات) الليبية التي كانت عاصمة ثقافية يومئذ. فهذا مؤلف مواطن للبربر وابن بلدتهم فلعله من اعرف الناس بهم. وهو معجزة القطر الليبي في العصور القديمة. كتب ايراتوشنيس موسوعة جغرافية كبرى في الثلث الأخير من القرن الثالث قبل الميلاد. فهو يعرف البلاد إلا أنه يشتكي من أن القرطاجيين لا يسمحون بدخول قسمها الشمالي والغربي بسهولة. وقد اعتمد في تصنيف هذا الجزء من كتابه على رحلة حنون القرطاجني وعلى تصنيف مواطنه اوفيلاس القريناوي هذا علاوة عن مشاهداته وانطباعاته الخاصة. ومن سوء الحظ أن هذا التصنيف قد ضاع إلا بعض نتف منه جمعها البحاثة الألماني برفر ونشرها بمدينة لبسيك سنة 1880.

اوفيلاس القريناي:

أصله من مقدونيا وهو احد رفقاء الاسكندر الأكبر. ثم صار عضدا لملك مصر بطليموس فغزا قرينا سنة 323ق. م. وصار عاهل برقة وصاحب السيادة فيها. وعقد اتفاقا مع اغاثوفليس السرقوسي لافتكاك قرطاجة. والذي يهمنا منه هاهنا انه جمع وثائق وأخبار عن بلاد البربر تحدث فيها أصالة فتوحاته وفتوحات

زميله اغاثوفليس ووضع رحلة وصف فيها سواحل ليبيا.

بوليس

هو أحد مؤرخي اليونان الكبار ولد بمدينة ميغالوبوليس في ولاية اركادية من بلاد الاغريق سنة 205 ق. م. وتوفي 125 ق. م. وأرسل كرهينة إلى رومة سنة 128 فقضى بها 12 سنة وقد ألف تاريخه الكبير في 40عاما لم يبق منه إلا خمسة كتب كاملة ونتف من البقية ويعتبر هذا التصنيف من أهم المصنفات التاريخية في العصور القديمة. وفي منتصف القرن الثاني قبل الميلاد رافق بوليس القائد الروماني شيبون الاميلي أولا في مهمة سريعة لدى الملك البربري ماسنيسيا ثم طيلة عدة أشهر في الحرب البونيقية الثالثة فمكنه ذلك من ملاحظة الرجال والأشياء والحوادث وتسجيل ما أراد تسجيله وأتيح له أن يستخبر البربر ويجمع أخبارهم وطالما جرت له أحاديث وانعقدت له مجالس مع الملكين البربريين ماسينيسا وغولوسا. فسجل ذكرياته في الكتاب التاسع من تصنيفه الكبير. وعلاوة عن ذلك فقد اعتمد بوليس في أخبار الحروب البونيقية على ما كتبه المؤرخ اليوناني فلينوس. هذا علاوة عن ملاحظاته الخاصة المباشرة.

على أن المؤرخين اليونانيين إذ أطنبوا في أخبار الحروب البونيقية فإنهم شحوا بأخبار البربر. فإذا كانت أخبار تلك الحروب مناسبة طيبة لنا لنتبين على نورها أحوال البربر في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد فما ذلك النور إلا بصيص ضئيل أتى بعد ليل حالك. فلسنا نجد في هذه الكتب عرضا منسجما واضحا عن

النظام السياسي والاجتماعي عند البربر ولا بيانا لحضارتهم فلا يهتم بهم المؤرخون إلا من حيث ما ساهموا به من نصيب في الحروب الكبرى التي دارت رحاها بين قرطاجنة ورومه.

ارتيميدورس الرهاوي:

هو أحد الجغرافيين اليونانيين المشاهير عاش على رأس القرن الأول قبل المسيح. واشتهر في بلده اشتهارا كبيرا ونال حظوة كبرى وثروة طائلة ثم زار ايطاليا وأقام قنصلا برومة وزار اسبانيا وسواحل المحيط الأطلسي الأوروبية ثم شمال إفريقيا ومصر. وكان عالما جغرافيا قوي الملاحظة كثير الترحال والتطواف وقد طالع تصانيف من سبق من الجغرافيين والمؤرخين اليونانيين نخص بالذكر منهم تيموستينوس وايراستينس واغاترخيدس وبوليبيوس. ألف " رحلة مطولة " جعلها شبه موسوعة جغرافية حشر إليها ما سبقه به غيره من العلماء إلا أنه امتاز بدقة الوصف والعناية بيان نظام الحكومات وأحوال الشعوب وقد أفاض في وصف سواحل البحر المتوسط بكل تفصيل ويشتمل كتابه هذا على 11 سفرا جعل السفر السابع منها في وصف أحوال بلاد البربر. وقد ضاع هذا الكتاب الثمين وإنما نقل عنه استرابون نتفا بقيت لنا وهي من الأهمية بمكان. إلا أن ضياع هذا المصنف يحرمنا من الحكم له أو عليه وتبين قيمته بالإضافة إلى تنوير الحوالك من تاريخ البربر.

بورسيديونس الافامي:

هو أحد المفكرين والعلماء اليونانيين المولودين بسوريا ولد

حوالي 135 ق. م. وعاش 84سنة ومات في منتصف القرن الأول وقد ذهب إلى مدينة قادس باسبانيا للقيام ببحوث ودراسات علمية، وانتقل من هناك إلى إيطاليا فالتقت الرياح بالسفينة على السواحل المغربية، فاضطر لزيارة هذه الديار، وتحدث عنها في كتابين من تصانيفه احدهما أحوال المحيط والأخر كتاب التاريخ. وكتاب التاريخ يمتد من سنة 144 إلى سنة 78ق. م. وقد أسهب فيه عن أحوال الجغرافيا والتاريخ الطبيعي وطبقات الأمم وعاداتها. وهو من أهم الأمور لمعرفة أخبار البربر، يذكرها في الغالب استطرادا عند الحديث عن حروب يوغورطة وحروب بومبيوس مع يوليوس قيصر وعلاوة عما عرفه بنفسه عن البلاد فانه قد اقتبس معلومات استمدها من أصدقائه بروما أو من أهل قادس الذين زاروا موريطانيا.

ولقد ضاع كتاب التاريخ إلا أن ما يحتوي عليه من معلومات عن البربر قد نقله عنه مؤرخان كبيران احدهما سالسطس الروماني والثاني استرابون اليوناني، وسنهمل الحديث عن الأول مؤقتا ريثما ننتقل إلى ذكر من تصدى لكتابة تاريخ البربر من اللاتينيين.

استرابون:

ولد بمدينة اماسيه بقابذوفيا نحو سنة 50ق. م. ومات سنة 65 بعد الميلاد، وألف كتاب الجغرافيا الكبير وجعل القسم الأخير منه في وصف إفريقيا الشمالية وقد درس هذا المبحث العلامة الألماني شترنفر في كتاب سماه استرابون ودراسته لجغرافيا ليبيا

ونشره ببرلين بالألمانية سنة 1913.

ومن حظنا أن بقي لنا هذا الكتاب وإن كان فقير المادة فهو قصير فوق اللازم مشوش الترتيب لا يخلو من أغلاط مادية، فيذكر مثلا أن العاهل البربري آذر بعل حوصر بمدينة اوتيكه مع أنه حوصر في قرطة (قسنطينة) وهذا عجيب من مؤرخ كتب تاريخ حروب يوغورطه ضد آذر بعل ولعل الغلط صادر من ناسخ -والنساخ مساخ- ويقول إن جزيرة قوصرة واقعة وسط خليج قرطاجنة، وقد التبست عليه بجزيرة الجامور، ثم هو يذكر بعد ذلك قوصرة فيضعها في مكانها إزاء قليبية.

ولعل هذا القصر الفاحش في القسم المتعلق بالمغرب متأت من أن استرابون أراد أن يفرغ من تصنيفه على عجل. وان أخبار المغرب ليست من الأهمية في نظره بحيث تستغرق قسما مهما من الكتاب، وإذا استثنينا قرطاجنة فإن بقية بلاد المغرب لم تقم بأي دور في نمو الحضارة وازدهارها -هذا على رأي استرابون- ، وهو أنما وضع كتابه ليكون درسا لرجال السياسة وتفسير للحوادث التاريخية الكبرى التي كان العالم القديم مسرحا لها، فالمغرب لا شأن له في هذا الموضوع - على رأي استرابون طبعا لكي يفرد بمطولات الدراسات، أضف إلى ذلك أنه لم يزر بلاد البربر وإنما يتحدث عنها بالنقل عن غيره.

ومهما كان من الأمر فإن استرابون يفيدنا كثيرا عن الإمبراطوريات البربرية التي ظهرت في القرن الثاني قبل الميلاد مثل ملك يوبا الأول ويوبا الثاني ويوغورطه وغيرهم من كبار

ملوك البربر.

وألــف اســترابون أيضــا كــتاب فــي التاريــخ يبدأ ســنة 144، وينتهي سنة 27 واعتمد في كتابه التاريخي على المؤرخ الروماني تانوســيوس الذي ألف حوليات على عهــد يوليوس قيصر، وعلى المؤرخ اليوناني ابسيقراط. ويظهر أنه لم يعتمد على كتاب حروب يوغورطه الذي ألفه المؤرخ الروماني سالســطس. ولا على كتاب حــروب إفريقيا الذي ألفه يوليوس قيصر نفســه وذكر فيه حروبه بإفريقيا ولا ســيما معاركه مع بومبيوس وقد اعترف اســترابون بنفسه بجهل المؤرخين القدماء بأحوال البربر إذ قال: "أن معظم الشــعوب التي تســكن ليبيا (بلاد البربر) مجهولــة الأمر. فجزء قليل فقط من هذه الأصقاع قد زارته الجنود أو الرحالون الأجانب. وأما الأهالي مــن البربر فقليل منهم من زاروا أقطارنا وعلاوة عن ذلك فهم لا يريدون أن ينقلوا لنا كل شــيء عن أخبار بلادهم وإلا نكن من ذلك أنه لا يمكن الاعتماد على ما هم ذاكرون".

قاليماخس القريناوي:

هذا الشــاعر، هو أشهر ممثل للشــعر اليوناني ومعرفة اللغة اليونانية بمدينة قريني ومدينة الإسكندرية ولد في القرن الثالث بمدينــة قرينــي ودرس بهــا الآداب اليونانيــة ثم انتقــل إلى أثينة عاصمــة العالم الإغريقــي، وأقام مدة بالإســكندرية وألف عدة تأليف شــعرية ونثرية من جملتها أنشــودة مطولة لابولو يقول فيها:

".. والرجال يرقصون مع الليبيات الزعراوات.."

مما يثبت أن ســكان برقة من البربر يومئذ الذين ينتسبون إلى قبيلــة الأســبوســت كانوا زعرا. ومما يفســر لنا وجــود الزعرة عند بعض القبائل البربرية.

نيقولاس الدمشقي:

عــاش نيقولاس في القرن الثاني قبل الميــلاد على عهد الملك البربــري يوبا الثاني، وكتب في كل فن ومن أعجب كتبه تصنيفه ديــوان الأخلاق العجيبة والعــادات الغريبة وقد خــص فيه البربر بمــكان لائق وقد بقيت لنا من ذلك نتــف ذكرها صاحب المجموعة المســماة صغار مؤرخــي اليونان وهــي محتوى الجــزء الثالث من الصحيفة 362 إلى الصحيفة 436.

الليبيقيات:

إلا أن اليونــان اعتنــوا بتصنيف كتب ســموها ليبيقيات أي دراســات ليبية أو بربريــة، ونحن لا نعرف عن هــذه التصانيف إلا مــا قل، ويظهر أنها تأليف وضعهــا أصحابها بالنقل عن مصادر أخرى تختلف صحة وضعفا. وهي في الغالب من نوع التصانيف الاغترابيــة التــي تحكــي نــوادر الشــعوب للمتعة والاســتغراب والتشويق لا للفائدة العلمية.

وإليك أهم هذه التصانيف الليبيقيات:

أ - ليبيقالوقــوس الغجيونــي مــن أهل القــرن الرابع وهو قد صنــف كتابا فــي تاريخ ليبيا (انظــر نتف التاريــخ اليوناني 260 ص 373).

ب - ليبيقا في ثلاثة أسفار ألفها اغرويطاس القريناوي من أهل برقة كان يعيش في القرن الثالث قبل الميلاد وتاريخه اسطوري ميثولوجي ويعني ميلاد برقة وما جاورها من الجهات.

ج - ليبيقا في ثلاثة أسفار على الأقل منسوبة إلى هيسياناقس الذي كان يعيش في أوائل القرن الثاني ق. م.

د - ليبيقا من وضع بوسيذيونوس الالبى من أهل القرن الثاني أيضا.

هـ - ليبيقات في ثلاثة أسفار على الأقل تأليف الاسكندر بوليهستور الذي ألف تصنيفه بإيطاليا قي القرن الأول قبل الميلاد.

و - ليبيقا شارون القرطاجي وهو رجل كان يعيش بقرطاجنة البونيقية أو قرطاجنة الرومانية في عصر مجهول وألف تصنيفا في مشاهير الرجال والنساء ورحلة في البحر الأطلسي فيما وراء أعمدة هرقليس (جبل طارق).

هؤلاء هم أشهر اليونانيين من جغرافيين ومؤرخين الذين اعتنوا بدراسة البربر بخطوط مختلفة، وقد نستغرب كثرتهم كما نستغرب قلة الجدوى من تصانيفهم التي لم تبلغنا منها إلا نتف في الغالب.

ونستطيع أن نقسم هؤلاء اليونانيين إلى ثلاثة أقسام:

أ - القسم الأول: اليونانيون الذين كانوا يعيشون بقرطاجنة البونيقية وكانوا يؤلفون باليونانية لقراء بونيقيين منهم

فيلينوس الجرتنتي (من صقلية) الذي ألف تاريخ الحرب البونيقية الأولى وقد مال في تاريخه إلى القرطاجيين ضد الرومانوسوسيلوس ورفيقه سينوس اللذان كانا يرافقان القائد الكبير حنبل وقد وضعا تصانيف في ترجمته. ولكن الفلسفة شاعت بقرطاجنة وقد "تهلنت " الأرسطوقراطية وتأثرت بالحضارة الهلينية اليونانية وبآداب اليونان وعم ذلك الرجال والنساء حتى لقد كانت وسوفونيسيه الشهيرة متبحرة في آداب اليونان وفنونهم الموسيقية.

ب - القسم الثاني: اليونانيون الذين كانوا يعيشون بقرينا عاصمة بلاد ليبيا يومئذ، وقد كانت قرينا عاصمة من عواصم الحضارة اليونانية مثل أثينا والإسكندرية وشرشال بالجزائر وقرطاجنة إلى حد ما، فهؤلاء المؤرخون القريناويون هم أبناء البربرية العارفين بأحوالها.

ج - القسم الثالث: ويشمل المؤرخين والجغرافيين اليونانيين الأصليين أو الذين هم من بلاد الشرق اليونانية أو المتهلنة أي المتأثرة باليونان.

ونستطيع أن نضيف إلى هذه الأقسام الثلاثة أهل مدينة شرشال بالجزائر التي كانت عاصمة للحضارة اليونانية لاسيما على عهد الملك المستهلن يوبا الثاني. إلا أننا نؤثر أن نذكر يوبا الثاني في قسم الأدباء من ملوك البربر في عهد استقلاله.

4. المؤلفون الرومانيون

فتح الرومان قرطاجنة سنة 146 قبل الميلاد، ودام حكمهم

فيها إلى سنة 698 بعد الميلاد. على أنهم عرفوا البربر والقرطاجنيين في السلم والحرب منذ القرن السابع ق. م. فلابد أن تشوفهم العلمي ومصالح استخباراتهم قد دفعتهم إلى معرفة أحوال هؤلاء البربر. وها نحن نستعرض أهم المؤرخين الرومانيين الذين درسوا البربر :

سالسطيوس:

هو مؤرخ روماني ولد سنه 86 ق. م. ومات سنة 30م. والمهم هو أنه تولى ولاية إفريقيا الرومانية من سنه 45 إلى سنة 46. إلى عام 45 فهو قد عرف البلاد مباشرة وعاش في عمر قريب جدا من عهد الفتح الروماني (146 ق. م.) وعهد حروب يوغورطة العاهل البربري وألف كتاب حروب يوغورطة وذكر فيه أصل البربر ونقل لنا كثيرا من أخبارهم وعاداتهم. ولم يقتصر سالسطيوس على معارفه الشخصية ومشاهداته ومروياته، بل اعتمد أيضا على من تقدمه من المؤرخين اليونانيين وبخاصة بوزيدونيوس.

وصف لنا سالسطيوس البلاد البربرية فقال: " إن الموضوع الذي سأطرقه يتطلب مني أن أقول كلمات عن موضوع إفريقيا وعن الشعوب التي اتصلنا بها فيها من طريق الحرب أو الحلف. وأما الأقطار والشعوب التي جعلها إقليمها المحرق أو جبالها المنيعة أو صحاريها المنقطعة عسيرة الوصول فيظهر لي أنه يتعذر أن اروي في شأنها أخبارا محققة مدققة: على أني -مهما كان - سأروي من ذلك ما قل أتحدث عن البقية في إيجاز.... إن بحر إفريقيا كثير الزوابع وسواحلها قليلة المراسي وأرضها خصبة من

الحبوب غنية من المروج، قليلة الأشجار، ومياهها وعيونها قليلة، ورجالها أقوياء خفاف في السباق أصحاب كد وجد في العمل..... وأقدم سكان إفريقيا من البربر هم الجيتوك بجدالة، غازولة، قزولة، جزولة... إلخ) واللوبيون : وهم شعوب نفورة مخشوشنة يأكلون لحوم الوحوش ويرعون العشب مثل القطعان. ولا يعرفون قيدا أخلاقيا ولا وازعا قانونيا ولا سلطة أمير؛ وليست لهم منازل قارة فهم يسيحون في الأرض على العمياء مغامرين حتى إذا ما جنهم الليل أووا إلى حيث أمكن. وعندما هلك البطل اليوناني هيرقليس، الذي مات باسبانيا حسب الرأي الشائع عند الإفريقيين، انتشر جيشه شذر مذر، وهو جيش مركب من رجال ينتسبون إلى جميع الأمم وتنازح الرئاسة عليه عشرون منازع، فتفرقت تلك الجموح في الأرض ايدي سبا. فأما الماديون والفرس والأرمن فانتقلوا إلى إفريقيا على سفنهم واحتلوا الأصقاع القريبة من البحر المتوسط، وزاد الفرس اقترابا من المحيط واتخذوا الأكواخ من سفنهم التي قلبوها على الأرض، لأن البلاد خالية من مواد الخشب، واسبانيا بعيدة عنهم كثيرا فلم يتيسر لهم جلبه من اسبانيا لا شراء ولا مقايضة لأن مسافة البحر وجهل اللغة يمنعان كل معاملة تجارية، ثم أن الفرس اختلطوا بالجيتوليين بواسطة الزواج، ولما كانوا كثيري الترحال فطالما تحولوا من منزل إلى منزل ومن محلة إلى محلة فسموا أنفسهم النوميديين أي المترحلين. واما الماديون والأرمن فقد انضموا إلى اللوبيين لأن هؤلاء أقرب إلى بحر افريقيا من الجيتوليين الذين كانوا يعيشون تحت قرص الشمس في منطقة محرقة وما لبثوا أن حلوا المدن

إذ لم يفصلهم عن اسبانيا إلا مضيق، فسرعان ما استقرت العلاقات التجارية بينهم وبين تلك البلاد.

ثم أن اللوبيين حرفوا رويدا رويدا كلمة ماديين فقالوا موريين.

وأخبرنا سالسطيوس في شيء من الأطنان عن ملوك البربر حال استقلاقهم خلال الحرب البونيقية الثانية فقال: " خلال الحرب البونيقية الثانية بينما كان القائد القرطاجني حنبل يلحق الضيم بمجد الاسم الروماني ويطعن الطعنات القاسية سلطات إيطاليا كان ماسينيسا ملك النوميديين من البربر الذي جعله القائد الروماني شيبون الإفريقي حليفا لنا فخدم قضيتنا باعتزام وأبلى البلاء الحسن. وأراد الشعب الروماني أن يجازي ماسينيسا عن حسن فعله فبعد الانتصار على القرطاجنين واستاسار الملك البربري سفاكس كانت له بإفريقيا مملكة مترامية الأطراف قوية الشوكة، أعطى الملك ماسينيسا جميع المدن والأراضي التي وقع فتحها، وبقي هذا العاهل البربري معنا على العهد مراعيا ألفاظ حلف نافع ومشرف، ولم ينته ملكه إلا بوفاته فلما هلك ورث ابنه ميسينيسيا وحده ملكه وسلطانه إذ قد كان المرض قد قضى على غولوسا وماناسطبعل ابني الملك الراحل، وأنجب مسينيسيا ولدين هما اذربعل وهيامبسال وتبنى يوغورطة ابن أخيه الهالك مانسطبعل ورباه في قصره كأحد أولاده واعتنى به مثل عنايته بابني صلبه.

وتميز يوغورطة منذ نعومة أظفاره بقوة ملحوظة وجمال عجيب وعلى الخصوص متانة أخلاقه فلم يخلد إلى لذة ولا

انصرف إلى ترف، بل تعاطى جميع الرياضات الجارية في بلاده من رباط الخيل ورماية الحراب ومنازعة أترابه جوائز المسابقات... إلخ......"

وما نقله لنا سالسطيوس من أخبار البربر وبيان أحوالهم في كتابه حروب يوغورطة كثير ولا يمكن التبسط فيه وقد تناول البحث العلمي كتابه بالنقد والتحليل مما لا يتسع لبيانه هذا المقام.

ونستطيع أن نضيف إلى ساليطيوس -عرضا- الفاتح يوليوس قيصر نفسه أو احد كتابه بالأحرى الذي ألف دراسة عن حروب يوليوس قيصر بإفريقيا سماها حروب افريقيا وهو عظيم الأهمية أيضا.

طيطش ليوس:

مؤرخ روماني شهير، ولد بمدينة بادوة بإيطاليا عام 59 ق. م. ومات عام 19 بعد الميلاد، ألف كتاب العشريات أو المعشرات في تاريخ الرومانيين، وقد اعتنى فيه بإتقان الإنشاء وسمو القلم أكثر منه بتحقيق الحوادث.

كان هذا المؤرخ معجبا بالماضي وقاصا من الطراز الأول، فأشاد في كل مقالة بعظمة رومة والتمس في التاريخ موعظة ودرسا وموضوع بيان ساحر وخطب رنانة.

ويغلب على الظن أن بعض تراجمه بيت الحكمة في القيروان في القرن الثالث قد نقل هذا الكتاب من اللاتينية إلى العربية، وهو أحد مصادر ابن خلدون في بعض الأقوال، وتصنيف طيطش

ليوش مملوء بالبيانات فيما يتعلق بأخبار البربر في عهد ملوكهم من ماسينيسا إلى يوغورطه وهو قد أفاض في أخبار ماسينيسا ومـا كانت علاقاتـه مع القرطاجيـين فانـه كان يهاجم أخصب جهاتهـم ويقتطع أعمر أصقاعهم ويضمها إلى مملكته وعجزت قرطاجنـة عـن مقاومته بالقـوة فلجأت إلـى تحكيـم الرومان، فاسـقطوا دعواهـا تـارة وتغافلوا عـن أعطائها الحق تـارة أخرى مما سـمح لماسينيسـيا بان يبني إمبراطوريته على حسـاب أهل قرطاجنـة فاخذ السـهول الكبرى أي سـهول مجردة من سـوق الأربعاء إلى طبربة، وأخذ جهة توسـكا أي جبل خمير وغزا جهات من طرابلس إلى غير ذلك.

ويعتمد طيطـش ليوش في مصادره التاريخية على برليبوس فـي الأكثر كما يعتمد علـى مروياته الخاصة فقـد انفرد ببيانات ووثائق لـم ينقلها لنا غيره أفادنا فيها بجزئيات عن ماسنيسـيا وأحفاده بما لم يفدنا غيره من المؤرخين.

وقد تبسط صاحبنا في أخبار حروب يوغورطه وانفراد ببيانات دون سالسطيوس مؤرخها الشهير.

حدثنـا طيطـش ليـوش فـي الأسـفار 62 و 64 و 65 و66 من معشـراته عن حـوادث افريقيا من سـنة 118 إلى سـنة 105 ق. م. ولـم يبق لنا من هذه الأسـفار إلا ملخصـات هزيلة ومن أهم الملخصات تأليف بولس هوروشـيوش الـذي نقل إلى العربية في عهـد عبد الرحمـن الناصر بالأندلـس واعتمده ابـن خلدون في كتابته عن تاريخ الرومان ويسـميه هرشـيش وهو تصحيف من

النسـاخ على ما يظهر ونعلم من كتاب هورشـيوش أن طيطش ليـوش الذي كان يبغض سـاطيوس لم يتبعه فـي روايته حروب يوغورطه واستقل عنه في نقل الأخبار.

وبالجملـة فهذا المؤرخ مصدر من أهـم مصادرنا لمعرفة أخبار الإمبراطورية البربرية المستقلة من عهد مؤسسها ماسينيسيا إلى آخر أيامها بعد الاحتلال الروماني النهائي..

بوميونيوس ميلا:

هـو أحـد الكتـاب الرومانيـين الذين نشـاوا باسـبانيا أمثال الفيلسـوف سـنيبخا واللغـوي كوينليانـوس. وألـف كتابـه الخوروغرافيـا وهو أقـدم تصنيف جغرافي ألفـه الرومانيون. وقد وضعه ميلا سـنة 44 بعد الميلاد. غير أن هـذا الكاتب لم يعتمد على مشـاهداته الخاصـة ولا على آخر ما حـدث ولكنه رجع إلى المصـادر القديمة التـي ألفت في القرن الرابـع أو الثالث أو الثاني قبـل الميلاد. فقـد كان ميلا مثقفـا أكثر منه عالمـا، فعول على مطالعاتـه، واعتمد أيضا ساسـطيوس وكان بـه معجبا وعول أيضا علـى افلينوس وفارونس وكورنيليـوس الحفيد وقد ترك هذا المصنـف وصفـا موجـزا لإفريقيا الشـمالية لا يرجـع إلى عهد المصنف بل إلى عهد الجمهورية أي قبل عصر ميلا بنحو قرن.

افلينوس القديم:

كاتـب روماني رياضـي ولد بمدينة كومو سـنة 23 بعد الميلاد. وألـف التاريخ الطبيعي في 37 سـفرا، وهو عبارة عن موسـوعة ثمينـة عن العلوم الرياضيـة والطبيعية وتاريخهـا في العصور

القديمة إلا أنها محشودة بالمعلومات التاريخية يذكرها بمناسبة أو بدون مناسبة وقد نقل لنا شيئا ذا أهمية من أخبار البربر، ومات في انفجار بركان الفيزوف سنة 79 عندما حاول إنقاذ منكوبيه.

5 - المؤرخون من البربر:

استولى الرومان على عامة الديار المغربية من سنة 146 ق. م. إلى سنة 698 بعده، وترمنت البلاد في مؤسساتها وأجهزتها الحكومية والاجتماعية والاقتصادية ومظاهرها اللغوية والثقافية، وأقبل البربر على تعلم اللغة الرومانية محادثة وكتابة والتبحر في الخطابة والبلاغة والآداب اللاتينية بفضل ما وجد في البلاد المغربية من مدارس ابتدائية وثانوية، وعلى الخصوص بفضل جامعة قرطاجنة الكبرى والإرساليات الطالبية التي كانت تذهب إلى معاهد رومة للكرع من مناهلها العلمية وتخرج من البربر الكاتبين باللاتينية مآت من الشعراء والخطباء والأدباء والعلماء والأطباء والمحامين.

فلاشك انه تخرج منهم أيضا مؤرخون "وطنيون " محليون كانوا اعرف من الرومان بتاريخ البلاد وأخبار العباد.

وإذا استعرضنا تاريخ الأدب البربري باللغة اللاتينية واستقصينا أخبار من عنوا بالعلوم التاريخية وجدناهم ينقسمون إلى قسمين:

أ - المؤرخون بالمعنى الخاص، أي الذين احترفوا أصالة صناعة التاريخ فدونوا الأخبار وتقصوا الآثار.

ب- الكتاب الذين لم يعتنوا بالتاريخ مباشرة لكن انقدوا المجتمع فبينوا لنا عاداته وأخلاقه وفضائله ورذائله ومنازعه ومشاربه : والقوا المواعظ في الكنائس أو الساحات الشعبية العامة فبنوا العيوب ونعتوا الأدواء ووصفوا الدواء، أو ألفوا روايات قصصية وصفية فوصفوا لنا المجتمع في حالة نشاط وتدفق حيوية في أدق جزئياته. فنستطيع أن نذكر في القسم الأول القدير أوغرستينيس العنابي الذي أعطانا تفاصيل إضافية عن المجتمع المغربي عامة والبربري خاصة خلال القرن الخامس بعد المسيح وأسهب في البيانات التي شخص بها المجتمع خصوصا في كتابيه الاعترافات ومدينة الله.

ونستطيع أن نذكر من القسم الثاني الكاتبين ترترليانوس وقبريانوس وقد انتقدا مجتمع عصرهما في القرن الرابع فصوراه لنا من وراء ذلك أبدع تصوير حي واقعي، فنرى مجتمع عصرهما حال حياته العائلية بالمنازل وحياته الدينية بالكنائس والأديرة، وحال حياته العامة في الشوارع والجامع والخمارات والمسارح والساحات الشعبية والأسواق والحقول. ونستطيع أن نذكر من القسم الثاني الكاتب الروائي أبوليوس الذي ألف-فيما ألف- عدة روايات أهمها وأشهرها رواية الحمار الذهبي وهي تتناول الحياة العامة المغربية فتصفها وصفا دقيقا، وتستعرض الشخصيات البارزة القارة أو المباغتة في كل مجتمع، ولو أن أحدنا قضى مدة في تحليل كل هذه المصنفات واستخرج منها المشاهد والأشخاص لصنف لنا كتابا جليلا في تركيب المجتمع البربري خلال الاحتلال الروماني.

وبالرغم من شدة رغبتنا في تناول هذا التحليل موجزا فإننا مجبرون بحكم ضيق المقام ومسايرة الموضوع مباشرة بأن نقتصر على القسم الأول من المؤرخين أي المؤرخين بالمعنى الخاص لهذه الكلمة، وأشهرهم :

فلوروس :

لعلنا نجد بين فلوروس المؤرخ الإفريقي في عصر الرومان، وبين ابن خلدون المؤرخ الإفريقي في عصر الحفصيين وجوه شبه كثيرة، أو لعلنا نستطيع أن نقول إن فلوروس هو حد أعلى "تاريخي" لابن خلدون فكلاهما فيلسوف تاريخ أكثر منه مؤرخ، وكلاهما باحث اجتماعي أكثر منه راوية أخبار، ولكليهما من العيوب والمحامد ما يكون أشبه من الماء بالماء، ولعل البلاد الإفريقية إذا أنجبت مؤرخا فذا أوحت إليه من الصفات الخاصة والعامة والفنية ما يتفق اتفاقا كبيرا على بعد الشقة الزمنية بين المؤرخ والمؤرخ. وإذا كان ابن خلدون عربي الأصل إلا أنه يمني من حيث الانتساب الأعلى، وهو نفس النسب المعزو إليه البربر، وهو على كل حال قد عاش في بلاد البربر أصالة واتصل بحكومات بربرية من حفصيين بتونس وزيانيين بالجزائر ومرينيين بالمغرب، فإذا كان ابن خلدون كذلك فإن فلوروس بربري أصالة، وهو مثل ابن خلدون أيضا قد انتقل من بلاط إلى بلاط وخدم القياصرة الرومانيين وراسلهم شعرا ونثرا وصنف لهم التصانيف فخبر أحوال الدول ودرس دواليب الحكومات وعرف نفسيات الرجال والساسة والموظفين ونزعات الشعوب: فتكونت له من ذلك خبرة مثل خبرة ابن خلدون.

لخص فلوروس تاريخ طيطش ليوش المعروف بالمعشرات. لكن هذا التلخيص هو في الحقيقة محاولة لوضع علم فلسفة التاريخ : كما فعل ابن خلدون، ووجه شبه آخر بين مؤرخنا الأول ومؤرخنا الثاني هو تقسيم حياة الدولة إلى أربعة عصور النشأة والعظمة والانحطاط والاندثار، فيبين فلوروس في كل دولة أسباب العظمة وأسباب الانحطاط.

وقد سار على غرار فلوروس بوسويه (1627-1704) ومونتسكيو (1589-1755) عند الفرنسيين، وفيكو (1668-1744) عند الإيطاليين.

وقد اعتنى فلوروس بتحليل التاريخ المغربي وأبدى أفكار قيمة ودرس بنور جديد تاريخ المغرب الروماني وأحوال البربر في هاتيك العصور، ونضيف إلى فلوروس ثلاثة مؤرخين آخرين من أصل بربري هم أيضا قد اعتنوا بالتاريخ العام وأيضا بالتاريخ الخاص بشمال افريقيا. وهم : مرونتونوس القرطي (أي القسنطيني) واولوجيلس الذي ألف الليالى الاتكية وهي مذكرات سجل فيها الحوادث اليومية من جليلة وحقيرة التي شاهدها أو عاشها خلال حياته الطويلة، والثالث هو أوريليوس فيكتور وقد ألف أيضا في التاريخ المغربي.

الفصل الثاني

ابن خلدون وتاريخ البربر

كان يجب أن نعنون هذا الفصل - تبعا للسياق والترتيب التاريخي العرب وتاريخ البربر، إلا أننا رأينا ابن خلدون بجمع في حد ذاته هذا التاريخ فقد تشبع منه وتقمصه حتى صار عنوانا عليه. ولو أن لأبن خلدون أسلافا مؤرخين أشهرهم ابر يوسف الوراق وإبراهيم الرقيق وأحمد التيفاشي، وإذا كان الوراق أول من أفسح المجال في تصنيفه المطول لدرس تاريخ البربر، فإن الرقيق أول من أفردهم بالتأليف، والتيفاشي أول أو على الأقل أكبر من مجدهم تمجيدا وذكر مفاخرهم وصور بطولتهم. ولتوضيح تاريخ البربر ينبغي أن نستعرض ما قاله فيهم ابن خلدون ملخصا.

قال ابن خلدون: " هؤلاء البربر جيل ذو شعوب وقبائل من تحصى... ولم تزل بلاد المغرب إلى طرابلس. بل إلى الاسكندر عامرة بهذا الجيل ما بين البحر الرومي وبلاد منذ أزمنة لا يعرف أولها ولا ما قبلها..."

وقال : "... الجيل من الآدميين (يعني البربر) هم سكان المغرب

على القدم ملؤا البسائط والجبال من تلوله وأريافه وضواحيه وأمصاره".

ثم إ ن ابن خلدون يصف لنا أحوال ا لبربر بالترتيب فيقول:

1 - مساكنهم"... يتخذون البيوت من الحجارة والطين ومن الخصاص والشجر ومن الأشعار والأوبار ..".

2 - معائشهم: " ... ويظمن أهل العز منهم والغلب لانتجاع المراعي فيما قرب من الرحلة لأيتحاوزون فيها الريف إلى الصحراء والقفر الأملس. ومكاسبهم الشاة والبقر. والخيل في الغالب للركوب الانتاج. وربما كانت الإبل من مكاسب النجمة منهم -شأن العرب- ومعاش المستضعفين منهم في الفلح ودواجن السادمة. ومعاش المعترين من أهل الإنتاج والاطعان في نتاج الإبل وظلال الرماح وقطع السابلة"

3 - ملابسهم وأثاثهم: ولباسهم وأكثر أثاثهم من الصوف، ويشتملون العماء بالأكسية المعلمة. ويفرغون عليها البرانس الكحل. ورؤوسهم -في الغالب- حاسرة وربما يتعاهدونها بالحلق."

4 - لغتهم: " ولغتهم من الرطانة الأعجمية متميزة بنوعها. وهي التي اختصوا من اجلها بهذا الاسم"

5 - أخلاقهم: "... وأما تخلق ا لبربر بالفضائل الإنسانية، وتنافسهم في الخصال الحميدة، وما جبلوا عليه من الخلق الكريم مرقاة الشرق والرفعة بين الأمم ومدعاة المدح والثناء من الخلق. من عز الجوار وحماية النزيل، ورعي الذمة والوسائل، والوفاء بالقول

والعهد، والصبر على المكاره، والثبات في الشدائد، وحسن الملكة، والإغضاء عن العيوب، والتجافي عن الانتقام، ورحمة المسكين، وبر الكبير، وتوفير أهل الدين، وحمل الكل، وكسب المعدوم، وقري الضيف والإعانة على النوائب، وعلو الهمة واباءة الضيم، ومشاقة الدول، ومقارعة الخطوات، وغلاب الملوك، ربيع النفوس من الله في نصره دينه.... فلهم في ذلك أثار ينقلها الخلف عن السلف لو كانت مسطورة لحفظ منها ما يكون أسوة لمتبعية من الأمم وحسبك ما اكتسبوه من حميدها، واتصفوا به من شريفها أن قادتهم إلى مراقي العز وارفت بهم على ثنايا الملك حتى علت على الأيدي أيديهم. ومضت في الخلق -بالبسط والقبض- أحكامهم.

6 - ديانتهم: رأى ابن خلدون بحصافة فكره وقوة ملاحظته أن عقائد البربر تطورت بحسب تأثرهم بمن زحف عليهم من الأمم، فقد تقلبت إلى ثلاثة:

أ- الماجوسية أو الوثنية:

قال " ... وكان دينهم دين الماجوسية شأن الأعاجم كلهم بالمشرق والمغرب".

ثم دانوا بديانة من غلب عليهم من الأمم فتنصروا أولا. ثم دخلوا الإسلام وحسن إسلامهم.

ب- النصرانية- قال:

"... إلا في بعض الأحايين يدينون بدين من غلب عليهم من الأمم، فإن الأمم أهل الدول العظيمة كانوا يتغلبون على البربر فقد

غزتهم ملوك اليمن. نقل ابن الكلبي أن حمير أبا القبائل اليمنية ملك المغرب مائة عام، وأنه الذي ابتنى مدائنه مثل افريقية وصقلية، واتفق المؤرخون على غزو افري قش بن صيفي من التابعة إلى المغرب كما ذكرناه، وكذلك اغتزتهم ملوك الروم من قرارهم برومة (الرومان) والقسطنطينية (الروم البيزنطيون) وهم الذين خربوا مدينة قرطاجنة (146 ق.م.) ثم جددوا بناءها – كما ذكرناه في أخبار الروم– واختطوا بسيف البحر ومايليه من الأرياف مدنا عظيمة وثيقة المباني، شهيرة الذكر، باقية المعالم والآثار لهذا العهد مثل سبيطلة وجلولا ومرناق ووطاقة (أو تيكة أو عوتيقة وتسمى الان بشاطر قرب بنزرت أول عاصمة للفينيقين، أسست في القرن الثاني عشر قبل الميلاد)، وزانة، وغيرها من المدن، وقد كان البربر دانوا لعهد الرومان والروم ذلك بما تعبدوهم به من دين النصرانية وأعطوهم المقادة وأدوا إليهم الجباية طواعية".

وفعلا دخل البربر في الديانة النصرانية من أواخر القرن الثاني للمسيح إلى القرن السابع وكان لهم شهداء استشهدوا من أجل عقيدتهم النصرانية التي كانت الحكومة تقاومها في الأول، فلجأ المتنصرون الجدد إلى المخابئ التي تحت الأرض وهي سراديب ملتوية يعيشون فيها ويتعبدون ويدفنون موتاهم، ومن عثر عليه منهم سيق إلى المسرح حيث تطلق عليه الحيوانات الضارية الجوعة فتمزقهم أربا أربا أمام الجماهير للاتعاظ. وقد تكونت عند البربر عدة شيع ونحل نصرانية أهمها الكاثولكية والدوناتوسية والاريوسية والوحدانية كما سنراه بعد.

ت- اليهودية:

دخلت اليهودية البربر مع البربر المتهودين الذين جاؤوا من اليمن، ثم مع اليهود الذين هاجروا من الشام بعد سقوط بيت المقدس وتخريب المعبد وزوال دولتهم ودخولهم في "الجلوة" Diaspora أي تشتتهم في الأرض شذر مذر. وبربر اليمن سكنوا الجبال في الغالب وبربر بيت المقدس سكنوا جزيرة جربة حيث توجد بقاياهم إلى الآن. وقال ابن خلدون :

"... وكذلك ربما كان بعض هؤلاء البربر دانوا بدين اليهودية، أخذوه عن بني إسرائيل عند استفحال ملكهم لعرب الشام وسلطانه يومئذ منهم، كما كان جراوة أهل جبل أوراس قبيلة الكاهنة يقاتلون العرب لأول الفتح كما كان نفوسة من برابر افريقية، وقندلاوة، ومديونة، وبهلولة وغياثة وبنوا فازار من برابر المغرب الأقصى، حتى محا إدريس الأول الناجم بالمغرب من بني الحسن بن الحسن جميع ما كان بنواحيه من بقايا الأديان".

ث- الإسلامية:

دخل البربر في دين الله أفراجا منذ سنة 27هـ أي منذ فتح العبادلة السبعة إثر وقعة سبيطلة في الجنوب الغربي التونسي، وتم إسلام جميع البربر في أواخر القرن الأول إلا من قل منهم. وحسن إسلامهم وصاروا من كبار المناصرين للإسلام والمسلمين.

قال ابن خلدون:

"... واما إقامة البربر لمراسم الشريعة، وأخذهم بإحكام

العلة، ونصرهم لدين الله فقد نقل عنهم من اتخاذ المعلمين كتاب الله لصيانتهم والاستفتاء في الفروض أعيانهم وابتغاء الأدمة للصلوات في بواديهم وتدارس القران بين أحيائهم، وتحكيم حملة الفقه في نوازلهم وقضاياهم، وصاغيتهم إلى أهل الخير والدين من أهل عصرهم التماسا للبركة في أثارهم وسؤالا للدعاء من صالحيهم واعتيانهم البحر لفضل المرابطة والجهاد وبيعهم النفوس من الله في سبيله وجهاد عدوه ما يدل على رسوخ إيمانهم وصحة معتقداتهم ومتين ديانتهم التي كانت ملاكا لعزهم ومفادا إلى سلطانهم وملكهم..."

مصادر ابن خلدون:

ما المصادر التي اعتمدها ابن خلدون لدراسة تاريخ البربر؟ حل هذا المشكل المهم هر بيان لتفهم تاريخ البربر خلال العصور، وسنحاول فك هذا المعمى بما لدينا من الكتب. ويتضح من مراجعة هذا الكتب أن المصادر التي اعتمدها ابن خلدون لتحرير كتابه أربعة:

أ- المصادر البربرية السابقة للإسلام، وذلك انه لما نشبت الحروب البونيقية بين القرطاجنيين والرومان من القرن الثالث قبل المسيح إلى سنة 164 ق. م. تكونت إمبراطوريات بربرية بحتة أسسها زعماء وطنيون من البربر على حساب البونيقيين والرومان في الأن الواحد، واعتنى هؤلاء الملوك بتصنيف انساب البربر وتدوين تواريخهم واثبات مفاخرهم، وكتبوا هذه التصانيف باللغة البونيقية التي كانت لغة العلم يومئذ. وصنفوا بعضها

باللغة اللوبية التي هي البربرية القديمة المعروفة لذلك العهد.

مصادر تاريخ البربر عند ابن خلدون: كان ابن خلدون يحذق شيئا من البربرية، ولاسيما البربرية الهنتاتية التي كانت لغة البلاط عند الحفصيين، وقد لاقى مختلف للهجات البربرية في رحلاته المتعاقبة خلال بلاد البربر والأندلس وكان يعرف شيئا قليلا من الاسبانية وخصوصا اللهجة البلنسية التي كانت أيضا لغة البلاط الحفصي، إلا أن معرفته البربرية ليست بالمقدار الذي يسمح له بالاطلاع على كتب البربر في لغتها الأصلية، ومعرفته شيئا من الأعجمية الأندلسية مما سمح له بالاطلاع على الكتب التي ألفت في اللاتينية عن البربر وإنما اتصل ابن خلدون بهذه الكتب عن طريق الترجمة، فمصادره ثلاثة عربية ولاتينية وبربرية.

ت- المصادر العربية: ألف العرب في نسب البربر منذ أول عهدهم بالتصنيف التاريخي أي في القرن الثاني للهجرة وأقدم من قام بذلك على ما يظهر النسابة ابن الكلبي ثم تعاقبوا بعد ذلك إلى عصر ابن خلدون، وإليك أهم النسابين:

أبن الكلبي: هو هشام بن محمد بن ابن نصر بن السائب الكلبي النسابة المؤرخ توفى سنة 206هـ وله كتاب الأنساب وبيوتات اليمن وقد اعتمده ابن خلدون.

عبد الله ابن قتيبة: (213-276) كاتب عربي شهير له كتاب الإمامة والسياسة وكتاب المعارف وفيهما كثير من أخبار افريقية والمغرب وهو من أقدم من طرق موضوع البربر من مؤرخي العرب.

أبو جرير الطبري: (224-310) المؤرخ والمفسر له كتاب أخبار الرسل والملوك وقد تحدث فيه عن البربر واعتمده ابن خلدون في تاريخه.

أبو الحسن المسعودي: (توفي 345هـ) له كتاب مروج الذهب وهو من أقدم من كتب عن البربر اعتمده ابن الصغير في كتابه سيرة الملوك الرستميين والشماخي في طبقاته من علماء البربر.

أبو يوسف الوراق: مؤرخ وجغرافي تونسي ألف أطول كتاب في تاريخ المغرب وجغرافيته، فهو كان يعيش في القرن الرابع الهجري وقد اعتمده ابن حزم ثم ابن خلدون.

علي ابن حزم: (384-456) له كتاب جمهرة الأنساب وفي أخره انساب البربر، وقد اعتمده ابن خلدون.

إبراهيم الرقيق القيرواني: (توفي سنة 483) أول من خص البربر بكتاب في أنسابهم له كتاب انساب البربر وكتاب أخبار القيروان وافريقية، وقد اعتمده ابن خلدون كثيرا، واعتمده الشماخي أيضا.

الجرجاني: أبو الحسن علي بن عبد العزيز (290-366) له كتاب تهذيب التاريخ وهو مما اعتمد عليه في أخبار البربر.

ومزيب الماريخ وهو كما اعتمد عليه في أخبار البربر.

أبو بكر البيهقي المحدث (384-468) وله بسطة عن البربر في كتبه الحديثية لا سيما كتاب: الأسماء والصفات.

أحمد التيفاشي القفصي: من أبناء تيفاش عالم بالرياضيات والآداب والعلوم توفي سنة 651 وله كتاب: الدرة الفائقة في محاسن الأفارقة، من أحسن ما ألف في البربر وأخبارهم وأنسابهم ومفاخرهم.

ت - المصادر اللاتينية: مصادر ابن خلدون اللاتينية اتصل بها عن طريق الترجمة ثلاثة:

أولها: معشرات طيطش ليوش التي ترجمت إلى العربية ببيت الحكمة بالقيروان في القرن الثالث.

ثانيها: تلخيص المعشرات لفلوروس الإفريقي ويحتمل أنها نقلت إلى العربية فاتصل بها ابن خلدون.

ثالثها: المؤرخ الروماني ذو الأصل الاسباني بولس هوروشيوش P.Orase الذي يسميه ابن خلدون "هرشيش" بالتخفيف وبدون مد، وقد ذكره في مواطن كثيرة من كتابه.

ث- المصادر البربرية : التي اعتمدها ابن خلدون ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: الكتب التي ألفها البربر في عصر استقلالهم وتكوين إمبراطوريتهم الأولى في القرن الثاني قبل الميلاد مما كتبه ملوكهم وعلماؤهم باللغة البونيقية التي كانت إحدى لغات الثقافة بتونس يومئذ إلى جانب اليونانية واللاتينية والبربرية القديمة (اللوبية).

الصنف الثاني: نسابو البربر: اعتنى البربر في العصر الإسلامي بضبط أنسابهم وإلحاقها بحمير في الغالب وامتازت

بذلك بعض القبائل لأسباب سياسية ودينية لاسيما القبائل التي قامت بدور أساسي في تاريخ الإسلام مثل كتامة وزاواوة وغمارة ومقلاطة وهوارة وصنهاجة وهنتاتة، ونحن نعرف انساب أشهر النسابين وشيئا من ترجمتهم.

وقد بدأ هذا العمل منذ عهد الاغالبة إلى عهد الحفصيين. وأكثر هؤلاء النسابين يعزون إلى قبيلة مطاطه التي يوجد لها جناح بالمغرب وجناح بالجنوب التونسي فنحن نقسم هؤلاء النسابين إلى أربع طبقات:

الطبقة الأغلبية (184-296) أشهر هؤلاء المؤرخين أبو سهل الفارسي النفوسي حفيد الإمام عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية بمدينة تاهرت بالجزائر، كان مترجم اللغة البربرية في دولة عمية الرستميين افلح ويوسف. وقد ألف ديوان شعر باللغة البربرية ضمنه تاريخ البربر وحروب الاباضيين والسنيين. لكن هذا الديوان الثمين احرق بعضه النكاريون وأحرقت بقيته في قلعة بني درجين، فلم يبق منه شيء الأن وضاع الأمل أو كاد في العثور عليه، نقول أن الديوان ضائع الأن ولا مانع أن يكون موجودا في عصر ابن خلدون، وانه انتفع منه لأنه قد جاء في عصر عز البربر وازدهار دولتهم الرستمية المعاصرة للاغالبة. ويمكن أن نلحق بأبي سهل الفارسي نسابين آخرين نجهل عصرهما ويظهر انه العصر الاغلبي وهما: خالد بن خداش المطامطي المغيلي (وتوجد بالجنوب التونسي قلعة ابن خداش)، وخليفة بن خياط المطاطي المغيلي (ومغيلة بطن من مطماطة) ذكرهما ابن خلدون واعتمدها فيما يتعلق باستيلاء

أبي قرة الخارجي على القيروان سنة 150هـ

الطبقة الثانية الفاطمية (296-361) وأشهر نسابيها من مطماطة أيضا، واكبر نسابي هذا العصر هو أبو أيوب أبي يزيد مخلد بن كيداد، وكان أبوه قد خرج على الفاطميين وجعل دولتهم قاب قوسين أو أدنى من هلاكها، ولد أبو أيوب في أواخر القرن الثالث ونشأ نشأة مؤرخ نسابة، وأرسله أبوه إلى بلاط الخليفة الناصرالأموي بقرطبة لينجده ضد الفاطميين وقتله عبد الله بن بكار سنة 333 وأرسل رأسه إلى المنصور العبيدي الفاطمي واتصل أبو أيوب بابي يوسف الوراق أكبر مؤرخي العصر الفاطمي وواضع اكبر موسوعة في تاريخ المغرب وجغرافيته وأعطاه نسب البربر عامة ونسب أبيه خاصة الذي هو في قبيلة يفرن ويرتفع إلى جانة وزناتة في 11 طبقة زاد عليها ابن خلدون طبقات أخرى لإكمالها. وقد نقل عنه ابن حزم هذا النسب في كتابه جمهرة الأنساب واعتمده أيضا -نقلا عن الوراق- في نسب مدغيس والبرانس إلا أن رواية هذا النسب تخالف رواية سابق المطماطي وهاني بن مزدور وكهلان.

ومن نسابي هذا العصر أبو محمد بن يغني البرزالي الاباضي، وكان البرزالي رجلا فقيها تقيا عالما بأنساب البربر. وقد روى عنه ابن حزم في جمهرته انساب البربر ومن كان منهم من الاباضية ومن كان من السنية. ثم نقل ذلك ابن خلدون عن ابن حزم.

الطبقة الثالثة: العصر الصنهاجي (361-555) وأشهر النسابين في هذا العصر: كهلان بن أبي لوا بن ازلاسن المطماطي

وهو رجل عالم بأنساب البربر ذهب إلى الأندلس لدى علي الناصر بن حمود الصنهاجي أمير مالقة (407-408) وقد اعتمده ابن خلدون في دراسة البربر.

الطبقة الرابعة: العصر الحفصي (555-900) وأشهر نسابي هذا العصر إبراهيم بن عبد الله التمزوغتي الذي عاش قبل ابن خلدون بمدة يسيرة، واعتمده هذا الأخير في بعض الأنساب نقلا عن ثقة رواها له عنه.

إلا أن كثيرين من نسابي البربر لا نستطيع تعيين عصرهم ولو على وجه التقريب، وفي مقدمتهم أكبر نسابيهم على الإطلاق : سابق بن سليمان بن الحراث بن دوناس المطماطي. وطالما ذكره ابن خلدون بإكبار وتمجيد وقد سماه أكبر نسابي البربر فيما يتعلق بنسب برنس بن يزيد مازيغ بن كنعان، ونسب لو الأصغر، فروع نفزاوة ولماية وورتناجة وهوارة ويقول ابن خلدون أن سابقا إمام نسب وشيخ جماعة.

ومن نسابي البربر أيضا الذين لا نعرف عصرهم:

هاني بن مزدور بن مريس بن نفوت الندرومي الكومي وهاني بن بكور الضريسي وغيرهما.

وهنالك طبقة أخرى من النسابين الذين نجهل حتى أسماءهم، فهم قد عنوا بإيجاد نسب قبيلة بربرية من كتامة وزواوة وغمارة ومقلاطة (وإليها تنسب مدينة البقالطة بالساحل التونسي فقد نقل البقالطة علي بن يحي الصنهاجي سنة 515هـ وأسكنهم بالبلدة المنسوبة إليهم الأن فرارا بهم من هجمات

قبيلة سبخاس التي كانت تغزوهم بجهة قفصة (وابدال الميم باء جائز في العربية والبربرية فنقول مكة وبكة) وعنايته تلك لإثبات نسبهم في العروبة لرفع مركب عنهم ومزاحمة العرب في أرومتهم لإغراض جنسية وسياسية. نستطيع أن نتبين أمثالا لها في التصانيف البربرية كتب الأنساب من ناحية، وكتب الطبقات والسير من ناحية أخرى. أما كتب الأنساب فلها غرض سياسي ظاهر قد بيناه. وهي أعم لأنها تشمل جميع قبائل البربر. أو على الأقل القبائل النابهة منها ذات الدور الكبير. وأما كتب الطبقات والسير فهي تعني طبقات الاباضيين وسير الأئمة السياسيين أمثال بني رستم أو أئمة المذهب الاباضي طبقة بعد طبقة. فهي ذات موضوع مذهبي أولا. وذات دائرة أخص فلا تشمل من البربر إلا من كان على مذهب محمد بن اباض وإذا كانوا كثيرين في عصر بني رستم فهم أقل كثرة فيما تلا من العصور. ولهذا كانت عناية ابن خلدون بهذا النسب أقل.

وإذا تبينا هذا من جهة الموضوع. فنستطيع أن نتبين من جهة اللغة ثلاثة أطوار أيضا. ففي الطور الأول كانت اللغة البربرية سائدة والتصانيف بها اظهر لأن عموم البربر كانوا يجهلون العربية وكان خواصهم يعرفونها. ناهيك أنه منذ القرن الأول ظهر شاعر يسمي سابق بن عبد الله البربري أوقف أغلب شعره على مدح الخليفة عمر بن عبد العزيز الأموي.

وفي هذا العصر الأول ألف مؤرخو البربر تصانيفهم في الطبقات والسير بالبربرية دون غيرها إلا أن هذه التصانيف قد ضاعت وإنما اعتمدها من أتى بعد هؤلاء فوضع كتب الطبقات

والسير. مثل الوسياني والدرجلين والشماخي والبرادي. ويظهر أن هذا الطور الأول يبتدئ من أوائل القرن الثاني وينتهي في أواخر القرن الثالث.

والطور الثاني هو الطور العربي البربري الذي يوافق ظهور الحكومة العربية البربرية مثل الحكومة الزيرية بتونس والحمادة بالجزائر. ففي هذا العصر جمع الكتاب بين اللغتين في تصانيفهم وهذا الطور يبتدئ من أوائل القرن الرابع وينتهي في أوائل السادس.

والطور الثالث هو الطور العربي البحث فقد صنف أصحاب السير والطبقات بالعربية دون غيرها وإن أقحموا عدة مفردات بربرية ضمن السطور.

الفصل الثالث

البربر في التاريخ

1 - أصل البربر

النظريات المتعلقة بأصل البربر ثلاث:

أ- الأصل الأوروبي:

يذهب البعض من العلماء إلى أن البربر من أصل هندي أوروبي، أي من الأصل اليافتي المنسوب إلى يافت بن نوح عليه السلام، خرجوا في عصور متقادمة من الهند ومروا بفارس ثم بالقوقاز، واجتازوا شمال اوروبا من فينلاندا إلى اسكندينافيا ثم بريطانيا الفرنسية ثم اسبانيا، ويستدلون على ذلك بالمعالم الميغالينية أو معالم الحجارة الكبرى من المطاطب (الدولمين) والمسلات (المنهيد) والمستديرات (الخرومليكس) التي بثوها على طول هذه الطريق وهي توجد بشمال افريقيا وتنتهي بالمفيضة. كما يستدلون باسماء قبائل الكيماريين بفينلاندا والسويد وبني عمارة في المغرب وخميس بتونس فالأسماء متشابهة جدا؛ أو بالحرف الروني المنقوش على المعالم الميغالينية فإنه يشبه الخط اللوبي المنقوش على الصخور بشمال افريقيا ولبعض

الخصائص البشرية كبياض القوقاسي وزعرة الشعر المتصف بها الشماليون.

ب- الأصل السامي:

ومعظم الباحثين يذهبون إلى أن البربر من أصل سامي أولي من أبناء سام بن نوح لا يافت بن نوح. فقد كانت الجزيرة العربية موطن الساميين مغشاة بالثلوج في شمالها. فكانت اليمن بلاد اليمن والخير وهي مهد أبناء سام الأولين مختلطين مع أولاد أعمامهم أبناء حام. فلما انحسرت الثلوج اشتدت الحرارة وقحلت البلاد وتفرق سكانها فانتقل الفرع السامي من البربر والنوبة والحبشة وقدماء المصريين إلى افريقيا واستوطنوها فانفرد البربر بشمال افريقيا والحبشة بإفريقيا الشرقية والسودان بإفريقيا الشرقية والوسطى. وهذا ما ذهب إليه العرب وهر مشهور المذهب عند الأوروبيين اليوم لاسيما علماء الألمان الذين هم نزهاء في بحوثهم، ويتبعهم في ذلك الإيطاليون.

ت- الأصل المزدوج:

ويذهب فريق ثالث إلى أن البربر ينتسبون إلى سلالتين، فالسلالة الأولى هي الهندية الأوروبية التي نزحت إلى افريقيا من آسيا ثم أوروبا على الطريق التي ذكرنا وبالأسلوب الذي ذكرناه: والسلالة الثانية سامية أولى كما وصفنا. ثم التقت السلالتان بالمغرب وهذا ما يفسر لنا اختلاف الخصائص البشرية عند البربر في السحنة ولون الشعر والعيون وشكل الجمجمة وحتى اللهجات، وهذا ما يفسر أيضا الخلاف القائم بين مصمودة

وصنهاجة مثلا.

2 - ملوك البربر قبل البونيقيين:

ارتقى البربر رويدا رويدا من رئاسة القبيلة عند قدومهم إلى المغرب بأثر انتهاء العصر الحجري إلى "جمهورية" القرية التي تتألف من "الجماعة" ورئيسها. ثم رويدا رويدا أسسوا الحكم الملوكي وأسلسوا قيادهم إلى ملوك صغار يسمى الواحد منهم "اجليد" وأخذت هذه الملوكية تتجمع كتلة كتلة إلى أن عمت جهات بعينها.

3 - ملوك البربر في العهد البونيقي: (815ق.م.-146ق.م.).

إن الأطراف التي بقيت بعيدة عن الحكم البونيقي المباشر، أي عن سلطان قرطاجنة نفسها حاولت مرام إنشاء ممالك دامت طويلا أو قصيرا وتوقفت قليلا أو كثيرا واستقلت عن القرطاجنيين إن أكثر وإن أقل. وهذه الجهات في الغالب هي الصحاري والجبال والأقاليم الداخلية البعيدة عن الساحل الواقع تحت نفوذ البونيقيين.

أ- الإمبراطورية الغربية:

نلاحظ في تاريخ إنشاء الإمبراطورية البربرية ثلاث مراحل تطابق الظروف والمناسبات وسياسة المقاربة، فلما كان المغرب الأقصى بعيدا عن تأثير القرطاجنيين والرومان في الآن الواحد فقد نشأت فيه أول إمبراطورية قبيل القرن الرابع ق. م.

ب- الإمبراطورية الوسطى:

في القرن الثالث أمس العاهل البربري سيفاكس إمبراطورية كبرى بالمغرب الأوسط جعل عاصمتها مدينة قرطة أو قسنطينة وكانت تعمرها من القبائل البربرية قبيلة الجيتوليين (جدالة وماسولة (ولعلها مزونة) وكان من عظمة هذه الإمبراطورية البربرية أن قرطاجنة رغبت في حلف سيفاكس وأعطته بنتا من الأرسطوقراطية العليا واستقل سيفاكس بالجزائر كلها وجلب معالم الحضارة اليونانية وعقدت به آمال الاستقلال البربري لولا أن انهار سلطانه دفعة واحدة سنة 203ق. م.

ت- الإمبراطورية الشرقية:

اغتنم ماسينيسا انهيار ملك سيفاكس وقرطاجنة في الآن الواحد، واظهر الولاء للرومان مخاتلة وكون إمبراطورية في القسم الشرقي من نوميديا والغربي من المملكة التونسية. وجعل عاصمتها قرطة ولعلها قرطة الثانية التي هي مدينة الكاف، وكان رجلا عظيما وضع للبربر حكومتهم وأنشأ اقتصادهم وحرر ثقافتهم فهو شبيه جدا بزيري مناد الصنهاجي الذي صانع الفاطميين حتى أورث أحفاده ملكهم.

ث – إمبراطورية يوغرطة:

إلا أن المرحلة الكبرى في سبيل الاستقلال البربري خطاها يوغورطة بن غايا الذي أعلن الحرب على الرومان وعلم أنهم أمة مبتاعة لمن يريد شراءها بالمال. وأسس إمبراطورية شامخة الذرى وتمسك بالقيم البربرية وأحيى المعالم الوطنية وشنها حربا

ضروسا على الرومان جعلت ملكهم قاب قوسين أو أدنى من الموت. ونحن نتخذ من تاريخ يوغورطه دروسا ثمينة في نزعة البربر نحو توحيد البلاد وإنشاء الدولة وتكوين الإمبراطورية وما أشبه يوغورطة بباديس ويوسف بن تاشفين وعبد المومن بن علي وأبي زكرياء الحفصي لولا الفرق بين الفريقين في حظوظ الحرب وايلولة النصر. فقد تغلب الرومان بالنهاية وانتصروا على القرطاجنيين ويوغورطة معا ووقعت البلاد في قبضتهم وأسسوا نظام ملوك الحماية. فاقطعوا يوبا الأول ثم يوبا الثاني قسما من البلاد على نية استرجاعه من أحفاده فيما بعد عندما ترسخ قدمهم في البلاد. وانصرفت همة يوبا الثاني إلى العلوم والآداب والفنون اليونانية فجعل عاصمته شرشال موطنا للحضارة اليونانية وانقطع إلى تأليف المصنفات والموسوعات. وانتهت الإمبراطورية البربرية ولجأ الرومان إلى الحكم المباشر وسط الثورات المتتابعة إلى أن زال ملكهم وانقطع طغيانهم ودار عسفهم عليهم وجاء ملك الإسلام فوجد فيه البربر مجالا لتجديد الإمبراطورية كما سنرى.